سكيكدة (Rusicade) خلال عهد الإحتلال الروماني

Skikda (Rusicade) during the reign of the Roman occupation

أ.د. عبد القادرصحراوي

جامعة سيدي بلعباس

تاريخ الاستلام : 2016/07/14 تاريخ القبول:2016/09/04

Abstract :

The Phoenicians built several Punic trading posts, including Skikda, which took the name of Rucicade during the Roman period. It was part of the Cirtean confederation. Several archaeological excavations have shown the ruins of Rucicade as the Roman theater and arches. This city has lived more than 450 years.

Key words:
Phoenicians - Skikda - rucicade - Roman period - numidia

تعتبر منطقة الشرق الجزائري من أكثر المناطق التي خضعت للإحتلال الروماني، فقد ترك فيها الرومان العديد من الآثار والنقوش التي تدل على سيطرتهم وهيمنتهم عليها، وكان هذا الجزء من الوطن آهلا بالسكان وكثير المدن وهو ما تكشفه الآثار التي عثر عليها بمناطق تم التعرف على اسمها القديم، أو تلك التي لا تزال أسماؤها مجهولة[1].

وتحتل منطقة سكيكدة سلسلة جبلية تعد آخر تفرع لمرتفعات بلاد القبائل، بحيث تنتهي بسهل سوننجة وبحيرة فتزارة، وترتفع هذه السلسلة باتجاه الجنوب حتى تدرك القمم التي يحدها سباو وجبل الوحش ومتاية. كما تخترق هذه المرتفعات العديد من الوديان التي تصب في البحر مثل واد القبلي، والصفصاف وفندك. ولا تمثل المناطق المجاورة باستثناء السهول، إلا كثبانا رملية ومنحدرات تغطيها أشجار الفلين. بينما نلاحظ سهولا خصبة ومياه كثيرة وحقول أشجار الزيتون بالمنطقة الجنوبية للمدينة.

ويظهر من هذا العرض أن السكان فضلوا الاستقرار بالمدن الساحلية التي منها سكيكدة، بالاضافة الى السهول والمرتفعات الجنوبية المحاذية لها[2]

1- جذور مدينة سكيكدة (Rusicade) ودورها خلال عهد الاحتلال الروماني:

يعتبر بطليموس « Ptolemée »[3] الجغرافي القديم الوحيد الذي ذكر خليج نوميديا، والذي ينقسم الى قسمين شرقي وغربي، ففي عمق القسم الأول أقيمت مدينة سكيكدة التي تم التعرف عليها بفضل العديد من النقوش مثل هذا الجزء من نقيشة حملت إسم المدينة: (Genio coloniae veneriae rusicadis)[4] ويعتقد أن كلمة (Rusicade) بونيقية الأصل تعني الرأس الحامي الذي تعلوه منارة بحرية، أما (veneria) فقد تكون ترجمة لفينوس (venus) الفينيقية أستوارات أو استورا، ولا تبعد ستوارا حاليا إلا بحوالي 4 كيلومتر الى الشمال الغربي من سكيكدة[5]، ومما تجدر الاشارة اليه أن الدولة الفينيقية قد أسست العديد من المعابر على طول الساحل المتوسطي، إستعملتها كأسواق أو محطات تجارية والتي تعتبر سكيكدة الواقعة الى الغرب من راس بوهارون أحداها.[6]

وتضمنت لائحة بوتينغر «Peutinger »[7] العديد من أسماء المدن الساحلية الرومانية لشرق الجزائر كالقل (Chullu) وسكيكدة (Rusicade) وقد كتبت سكيكدة القديمة بعدة طرق منها (Rusicada) و (Rusicadis) ،إلا أن هاتين الطريقتين لا تتطابقان مع ما احتوته لائحة بوتينغر حيث كتبت المدينة بالشكل الآتي (Rusicade) والتي ربما تكون اسما او مفعولا فيه، ونفس الامر يلاحظ بالنسبة لنقيشة سبقت الاشارة اليها وتضمنت ما يلي (Genio rusicadis) ولا يمكن اشتقاق المضاف اليه (rusicadis) إلا من الاسم (Rusicas)أو (Rusicade)، ولذلك تبنى الكثير من المؤرخين القدامى والمحدثين الإسم الثاني أي (rusicade)[8].

ويذكر الكثير من أصحاب المصادر القديمة كبطليموس « Ptolemée»[9] وبلينوس «Pline»[10] مدينة سكيكدة (Rusicade) كمستعمرة رومانية، من دون الاشارة الى أنها من

تأسيس الرومان. ويحتمل أن تابسة (Tapsa) التي ذكرت في رحلة سيكلاس «Scylax» التي شيدت في عهد الفينيقيين ، وجدت في نفس موقع سكيكدة، وأنها حملت إسم الواد المجاور صفصاف11.كما أن هناك العديد من النصوص التي يعود تاريخها إلى الفترة التي أعقبت الملك ماسينيسا، والمعطيات الأثرية الدالة على وجود المدينة القديمة12. هذا ويعتقد كذلك أن سكيكدة القديمة بنيت من طرف الرومان في سنة 45 ق.م ، خلال عهد الإمبراطور يوليوس قيصر «Julius Caesar» إثر إكتساح القوات الرومانية لنوميديا، والذي أعقب هزيمة الملك يوبا الأول والبومبيين في سنة 46 ق.م13.

وحول الرومان نوميديا إلى مقاطعة غمبراطورية، تخضع لحكم عسكري مباشر من روما، واصبحت سكيكدة بوابة للإتصالات بين عاصمة الإمبراطورية ومقاطعة نوميديا مما يعكس أهميتها الإستراتيجية والتجارية، وقد سمح موقعها البحري ونشاطها التجاري باستقرار العديد من الناس سواء من السكان الأصليين أو من المهاجرين، كما إشتهرت بيد عاملة غنية. وقد ذكر هذا النشاط التجاري واليد العاملة من خلال النصوص التي إحتوتها أثار المدينة كالمسارح والخزانات14.

وتشكل النقوش أهم هذه النصوص، فهي تشير أن المحتلين الرومان أسسوا الكونفدرالية السرتية، التي تضم إلى جانب سكيكدة (Rusicade)،كلا من قسنطينة (Cirta)، القل (Chullu) وميلة (Milev)15 ، والتي تعرف أيضا بكونفدرالية المستوطنات الأربعة (Respublica coloniarum cirtensium)، وقد سلمت هذه المدن الأربعة وأجزاء أخرى من المقاطعة إلى معاون الإمبراطور قيصر «Ceasar» المرتزق سيتيوس «Sittius» وقدماء محاربيه، الذين أسسوا العديد من البلديات والمقاطعات الفلاحية التي تتمتع باستقلالية كبيرة16.

لقد أعقب احتلال نوميديا وتأسيس الكنفدرالية السرتية، إكتساب مدن قسنطينة (Cirta)،و القل(Chullu) ،وسكيكدة (Rusicade)، وميلة(Milev) صفة بلديات رومانية17. وتعتبر سكيكدة والقل المنافذ البحرية الرئيسية للمقاطعة على الخارج18 ، كما تشير

بقايا أثرية عثر عليها بسكيكدة يعود تاريخها الى القرن 3 ق.م ، أن للمدينة صلات قوية بقسنطينة الواقعة في الداخل[19]

وتبرز هذه الصلة أيضا من خلال الطرق التي ربطت سكيكدة بمختلف مدن المقاطعة وخارجها ، وضمن هذا السياق نشير إلى ثلاثة طرق، الأول ساحلي غربي يخترق بجاية (Saldae) وجيجل (Igilgili) ليصل إلى سكيكدة (Rusicade) ثم يمتد إلى عنابة (Hyppo regius) ، أما الثاني فداخلي يربط سكيكدة بعنابة، في حين يمتد الثالث نحو سيرتا[20]. وكان آثار هذا الطريق الثالث واضحة خلال الحملة الاستعمارية الفرنسية على مدينة قسنطينة، كما عثر على بقاياه على بعد حوالي 18 كيلومتر منها ، أما عرضه فيتراوح ما بين 3 و4 أمتار، تغطية حجارة دائرية مجمعة بين خطين متوازيين من الحجارة المنحوتة[21].

وسمح الطريق الرابط بين لامبيز (Lambaesis) قسنطينة و سكيكدة بجلب الإمدادات العسكرية الضرورية بسرعة كبيرة لمعسكر "كتيبة او غسطوس الثالثة (Legio 3 augusta) بلامبيز، أفضل من أن تجلب قوات عسكرية من قرطاجة (Carthago) أو تبسة (Theveste)[22]. ويجرنا الحديث عن آثار الطرق التي ربطت سكيكدة ببقية المدن ، إلى ذكر البقايا الأثرية التي عثر عليها بسكيكدة وخاصة المسرح الروماني وخزانات المياه.

2- أهمية الآثار الرومانية بسكيكدة:

خلف الرومان العديد من الآثار التي تم الكشف عنها خلال القرن 19م من طرف الإستعمار الفرنسي، جراء عمليات التنقيب والحفر التي عرفتها مدينة سكيكدة أو فيليب فيل (Philippeville) كما سماها الفرنسيون، وتضم هذه الآثار المسرح الروماني وخزانات المياه والأقواس الطويلة والمجرى المائي العظيم المكتشف في سنة 1850م. وقد عثر على أرضية المدينة على عمق 4 أمتار، بزاويتها الجنوبية الشرقية درجات سلم روماني، الذي من المحتمل أن يكون محاطا بسور يحتوي على أبراج أو هو محمي بقلعة[23].

وجه هذا السور نحو البحر، وقد شوهد به خلال القرن 19م آثار أبراج بنيت من الدبش والحجارة المنحوتة. كما تعتبر الخزانات أهم أسس المسرح الروماني الذي يعد أعظم بناية بسكيكدة (Rusicade)[24] ، وقد ساد الإعتقاد مدة طويلة أن المسرح الروماني عبارة عن سيرك، إلا أن النقوش أكدت أن البناية هي فعلا مسرح روماني. وتبلغ مساحته حوالي 4900م^2، بينما تقارب مساحة الآثار التي عثر عليها خلال القرن 19م حوالي 2740م^2 ، ويسع لحوالي 6 آلاف متفرج، وبذلك فهو أكبر من مسرحي مدينتي جميلة (Cuicul) وتيمقاد (Thamugadi)[25]. ويصل عرضه إلى حوالي 82.60 متر، بينما يصل عرض المسرحين المذكورين إلى 62 متر على التوالي، وربما يعود تاريخ بنائه إلى فترة حكم الإمبراطور هادريانوس «Hadrien» الممتدة ما بين سنتي 177 مو 138 م[26]. وقد عثر أثناء التنقيبات به على 21 سلم وفسيفساء جميلة تمثل شخصيات مختلفة [27]، وقد شهد عمليت ترميم وتزيين في العديد من المرات خلال القرنين الثاني والثالث الميلادي[28]. ثم عرف نفس مصير المدرج الموجود قرب المقبرة في جنوب شرق مدينة سكيكدة جراء الهدم الذي لحق به، وحلبات صراع الثيران، وإستعمال حجارة هذه البنايات لبناء مدينة فيليب فيل من طرف الإستعمار الفرنسي خلال الفترة الممتدة من 7 أكتوبر 1838 إلى 1845م[29].

كما عثر على آثار خزانات المياه فوق مرتفع يعلو آثار المسرح الروماني بحوالي 119م فوق مستوى سطح البحر، وهي عبارة عن خزانات كانت تزود العيون والحمامات العمومية. وقد زودت هذه الخزانات التي تسع لحوالي 8 ملايين لتر بواسطة مياه واد بني مالك التي جلبت عن طريق قناة عثر على جزء من تخطيطها. وبذلك لم يكن الماء ينقص مدينة سكيكدة الساحلية التي وفرت الماء أيضا للبواخر التي ترسو بها، وفي نفس الوقت زودت حمامات وموارد سفن البحرية.

ولوحظ كذلك احتواء كل منزل بسكيكدة (Rusicade) على خزان خاص، أما بوسطها فقد تم العثور على آثار حمامات جميلة، زينت أرضها بالرخام[30]

وعلى الرغم من نفي شارل اندري جوليان «» العثور على آثار للموانئ الرومانية لكل من سكيكدة والقل المشهورة بمصانعها الأرجوانية[31]، إلا أنه لوحظ في سنة 1851 م تدمير بعض أجزاء مرافئ الميناء القديم، في حين بقيت جزاء أخرى في حالة حفظ جيدة[32] وعثر في سكيكدة أيضا عللا قبور هي عبارة عن بنايات صغيرة مربعة الشكل، طول جهتها الخارجية ما بين 4 و5 أمتار تغطيها قبة، ووجدت قبور كثيرة في أعالي الطريق الرابط بين سكيكدة وستور، بالإضافة إلى فبرين او ثلاثة فوق قمة توزيع مياه بني مالك إلى الغرب من الطريق الرابط بين سكيكدة وقسنطينة، وبنفس الطريق عثر على قطعة فسيفساء جميلة ونقيشة وعمود معلم ميلي يعود تاريخه إلى فترة حكم الإمبراطور هادريانو «Hadrien»[33].

3- مصير سكيكدة الرومانية:

تعتبر فترة حكم الأباطرة الأنطونونيين وخاصة المدة الممتدة بين 96م إلى 192م من أعظم المراحل التاريخية التي شهدتها مدينة سكيكدة، التي يحتمل أن يحتمل أن يكون عدد سكانها قد قارب 100 ألف نسمة[34] وقد وضع الوندال حدا لفترة الإزدهار التي عرفتها المدينة بتدميرهم في سنة 429م ، العديد من مدن المغرب القديم. ويمكننا التعرف على التاريخ التقريبي لتدمير المدينة من خلال كتابة الكنائس الإفريقية، ففي سنة 256م أي في عهد الأباطرة فالريان وغليان «Valerien et Galien» حضر أسقف سكيكدة فرولوس «Verulus» إجتماعا بقرطاجة وآخر بسيرتا[35].

أما في سنة 305م ، فقد ذكر أسقف آخر يدعى فكتور «Victor» بينما حضر إجتماع قرطاجة في سنة 411م أسقفين للمدينة، الأول كاتوليكي هو فاوستينوس «Faustinus» والثاني دوناتي هو جونيو«Junior»، وتعتبر وثيقة الحضور هذه آخر مصدر ذكرت فيه سكيكدة، فلم

تحتو قائمة الأساقفة المدعويين من طرف هونوريك «Huneric» الوندال إلى قرطاجة في سنة 484م أي أسقف المدينة. ومن ثم يمكننا القول أن سكيكدة كانت لا تزال قائمة في سنة 411م بينما أصابها الدمار والإندثار في سنة 484 م خلال عهد إمبراطور الشرق زينون «Zenon» ، ومن ثم تكون قد عمرت حوالي 450م سنة[36].

الإحالات:

1. De marcilly, Notice sur les vestiges de l'occupation romaine dans le cercle de Philippeville, R.S.A.C., 1853,pp.20-21.
2. Ibid,p.21.
3. Ptolemee, Geographie,iv,3,Paris,ed,Muller,1901.
4. Feraud (L.ch), Documents pour servir l'histoire de Philippeville R.A.f., 1875,p.81 ;Renier (L),Les inscriptions romaines de l'Algerie,N 2174,d'après Bertrand (L), Monographie du théâtre romain de Philippeville, R.S.A.C,1908,p3.
5. Feraud (L.CH), op,cit.p.87.
6. Julien (Ch.A), Histoire de l'Afrique du nord, des origines a la conquête arabe, Alger, Sned, 1978,p.80.
7. Table de Peutinger, d'après de Marcilly, op,cit,p.21
8. De Marcilly, op, cit, pp.21-26.
9. Ptolemee,iv,3.
10. Pline,Histoire naturelle,v,22,texte établi et traduit par Jehan Desange.Paris, les Belles lettres, 1980
11. Feraud (CH),op,cit,p82.
12. Benabou (M) La résistance africaine a la romanisation, paris, Maspero,1976, p.407.
13. Bertrand (L),op,cit,pp.9-10
14. Feraud (L CH),op,cit,pp.82-83.
15. C.I.L, 7041, 7610,7611.
16. Julien (Ch.A),OP,P.145
17. Benabou (M),op.cit,p.40
18. محمد الهادي حارش، التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي، الجزائر، المؤسسة الجزائرية للطباعةن1995،ص.213.
19. محمد الصغير غانم، المملكة النوميدية والحضارة البونية، الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع،1998،ص.97.
20. Feraud (L. Ch),op, p.86.

De Marcilly, op,pp32-36.
Rachet (M), Rome et les berbères un problème militaire d'Auguste à dioclétien,[21]
Bruxelles, Latomus,1978,note3,p.166.
De Marcilly, op, p.26.[22]
Ibid, p,27.[23]
Bertrand (L), op,cit,pp.8-9,21 ;Renier (L),op.cit,n 2174,2175.[24]
Bertrand (L),op.cit.,p9.[25]
De Marcilly,op.cit.,p.27 ;Roger (J).Théâtre romain de Rusicade .[26]
Bertrand (L),op.cit.,p.10.[27]
Ibid,p.6; Roger (J),op,cit,pp389-390.[28]
Feraud (L.Ch),op.cit.,p84.[29]
Julien (Ch.A),op.cit.,p.71.[30]
Roger (J), op.cit., p.390.[31]
De Marcilly,op,cit,p28 ;Roger(J),op.cit.,p.392.[32]
De Marcilly,op.cit.,p28.[33]
Feraud (L.Ch), op.cit.,p.85.[34]
Ibid,p.85; Bertrand (L),p.10.[35]
(Philippeville),R.Af, 1865,p391.[36]